عندما يكون السلطان موضع اتهام

رخصاص*

ترجمة: تسنيم محمد حرب
مصر

شخصيات المسرحية:

السلطان محمد الفاتح.

القاضي خضر جلبي.

المهندس المعماري «أبسلانتي»: نصراني بيزنطي، يرتدي قلنسوة مدببة، إحدى ذراعيه مقطوعة، يتراوح عمره بين ٣٠: ٣٥ عاماً.

الحارس الأول: يتراوح عمره بين ٢٠: ٢٥ عاماً

الحارس الثاني: يتراوح عمره بين ٢٠: ٢٥ عاماً.

حاجب المحكمة: نفس السن.

حاجب المحكمة: رجل متقدم نسبياً في العمر.

الشاهد الأول: شاب في زي العمال.

الشاهد الثاني: عامل في نفس الزي

المنظر (قاعة محكمة عثمانية. على الأرض بساط، وفُرش مربعة. حامل خشبي للمصحف. لوحات خطية لآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، بطول الحائط).

المشهد الأول

(يجلس القاضي خضر جلبي، القرفصاء، أمام حامل المصحف. يجلس بجانبه كاتب المحكمة. يقف حارسان على جانبي المسرح، يضع كل منهما ذراعيه على صدره. وفي حالة استعداد لتنفيذ الأوامر).

القاضي خضر: (يعتدل بوقار ويتجه نحو مقدمة المسرح، وهو يلملم ذيل جبته ويقول لنفسه): سبحان الله! ياللعجب! (يرسل يده التي تمسك بالمسبحة إلى جانبه) أي أيام هذه التي نعيشها. أليس من العجيب أن تحدث في إستانبول وهي دار السعادة سرقتان في سنة واحدة (يشير بيده إشارة لعدد اثنين) ألا يخشى الله العظيم، وألا يستحيي من رسوله الكريم. ذلك اللص الذي عدم الحياء، واجترأ على الحق، في ملك السلطان محمد بن مراد؟! حاشا أن يكون هذا اللص مسلماً. لابد وأن يكون أجنبياً.. قد يكون من طائفة الروم أو الأرمن، أو قد يكون يهودياً (يهز رأسه إلى الجانبين في أسف) ما هذه الحال التي صرنا إليها.؟! واقعتا سرقة في سنة واحدة. لا يمكن أن يكون هذا دليل خير قط، إن هذا لعلامة من علامات الفساد. ويجب أن نأخذ حذرنا منها. لابد أن يكون هذا اللص عبرة لمن لا يعتبر. لابد من القبض عليه حتى لا يكون هنالك بين الرعية نموذج سيئ يمكن أن يتخذه بعضهم مثالاً. (يدخل حاجب المحكمة إلى المسرح).

الحاجب: (منحني الرأس، عاقداً ذراعيه على صدره) سيدي القاضي!

القاضي خضر: (يلتفت إلى الحاجب) قل يا عبدالله: هات ما عندك يا بني.

الحاجب: في الخارج رجل من طائفة الروم من خارج إستانبول ينتظر، ولديه ما يود عرضه عليكم.

* مسرحية تركية ذات فصل واحد من تأليف نيازي برنجي، أديب وكاتب تركي معاصر ذو اتجاه إسلامي، له روايات ومسرحيات عدة.

القاضي: (بإشارة إلى الباب) فلتدخلوه، حذار أن ينتظر، إن انتظار الرعية على باب الحق لمسؤولية.. وأي مسؤولية.

(يدخل الحاجب، بعد خروجه بقليل، وبجانبه المعماري «أبسلانتي» الرومي).

القاضي: (يتجه إلى مكانه، ويجلس القرفصاء متربعاً على الأرض، مخاطباً أبسلانتي) باب الحق مفتوح أمام كل الرعية، أياً كان ومن أي مكان كان. وثق أن العدل يأخذ مجراه.

أبسلانتي: (بسرعة وبلا حياء) هذا مؤكد يا سيدي. واضح هذا هو باب الحق! وحتى لو كان السلطان هو الظالم، أيأخذ في هذا الحال جزاءه؟!

القاضي: (بقليل من الدهشة والغضب)، إنّ عمل السلطان نفسه ذنباً، وإن كان أيضاً عيباً وقباحة، فسينال جزاءه، وتأخذ العدالة منه مأخذها.

أبسلانتي: وهل يمكن أن يجازى السلطان؟!

القاضي: نعم.. إذا ثبت الذنب عليه، سيجازى بالتأكيد. كل من يدخل من هذا الباب، متساوون، لا فضل لأحد على أحد، ولو قيد أنملة، لابد أن تعلم هذا، وتثق به.

أبسلانتي: (يضع يده على صدره مصدقاً) صدقنا، يا سيدي القاضي، ثقتنا في عدالة دينكم، ثقة مطلقة، وهي أمامنا، وبفضلها سواء في العاصمة إستانبول، أم في غيرها من الممالك العثمانية، يسير الذئب بجوار الحمل دون افتراسه. معلوم هذا لكل الناس كافة.

القاضي: خضر (مشيراً بيده) إذن لابد أن تسحب كل تصرف منك يدل على الشك، ولابد لك من بيان حاجتك بمجرد دخولك، باب الحاجة، ولا ينبغي لك أن تشغل هذا المكان عبثاً، (يعتدل ويركز في جلسته) ما اسمك؟ وعملك؟ وشكواك؟ ومن تشكو؟!

أبسلانتي: اسمي أبسلانتي، عملي مهندس معماري، وأشكو حضرة السلطان محمد.

الحارس الأول: (يرتجف دهشة ياللجرأة!

الحارس الثاني: (باستخفاف) إنه يخاطر بحياته. سيقطع رأسه!

الحاجب: (يضع يده على ذقنه) سبحان الله!

القاضي خضر: (يرفع حاجبه) يا ه... يا الله.. حسناً، فلتدل بشكواك كاملة وسنجري الأمر كاملاً على النحو الشرعي، والحكم لابد أن يكون على هذا.

أبسلانتي: غضب السلطان عليّ فأمر بقطع ذراعي.

القاضي خضر: يا سيد أبسلانتي! لم يسمع أحد من قبل، قطع ذراع بهذه السهولة. قل لي ماذا فعلت؟ وكيف أغضبت السلطان (يقول لنفسه) هذا السلطان اتسم دوماً برفق المعاملة. ما غلبه الكبر قط عندما جثا ملوك الكفر أمامه، وهم كُثر، ما غلبه الكبر قط وكم من البلاد فتحها!! حتى لو تملكه الكبر يوماً وخضع لرغباته: والعياذ بالله، هل يصل به الأمر أن يقطع ذراعاً (باضطراب) هيا اشرح لنا دعواك، ولا تقلق، فحكم الشرع يسري حتى على السلطان.

أبسلانتي: أصدِّق هذا، فتطبيق العدالة على هذه الأرض، هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، ويؤكد كلامي هذا الذي رأيته وسمعته الآن. لكني أخاف عندما يتعلق الأمر بالسلطان.

القاضي خضر: (يزمجر بحدة) يا أبسلانتي. قلنا: إنه لا محل لخوفك. كما أن ترددك لا فائدة ترتجى منه. كل من يدخل من باب هذه المحكمة، أياً كان فهو آمن وجميع من يدخله متساوون. ما الداعي لاضطرابك هذا الظاهر منك، وإلى ماذا يشير قلقك حتى الآن؟ إما أن توضح لي دعواك مفصلة أو تنسحب!!

أبسلانتي: (يحني رقبته) سمعاً وطاعة سيدي القاضي، سأبسط أمري بغاية من الوضوح.. كنت أعمل للسلطان في جامعه، بناء على فرمانه هو.. فرأيت أن أقطع من أسفل الأعمدة شيئاً قليلاً، وعندما رأى السلطان هذا استشاط غضباً وقال لي: لقد قمت باستحضار هذا الأعمدة بألف مشقة ومشقة من أماكن متعددة، ثم تقوم أنت بعد ذلك بالقطع منها.. قال لي السلطان هذا ثم أمر مقابل هذا بقطع ذراعي.. وأنا يا سيدي القاضي معماري، لا أستطيع القيام بعملي بذراع واحدة.

ولذا فإن قطع ذراعي معناه أنه قطع رأسي.. وهذه يا سيدي شكواي، وإني قد لجأت إلى المحكمة، وهي باب الحق. أطلب أن تأخذوا لي حقي من السطان.

القاضي خضر: وضح الأمر الآن (يقلب في الكتاب الذي أمامه ثم يلتفت إلى الحاجب ويقول) أرسل إلى السطان أن يأتي سريعاً إلى المحكمة، وإذا لم يفعل، فاستصدروا فتوى من شيخ الإسلام لإحضار السلطان قسراً.

هذا هو حكمي ولابد من تنفيذه. كما هو.

الحاجب: سمعاً وطاعة سيدي القاضي.

❖❖❖

المشهد الثاني

(السلطان واثنان من العمال، وكل من في المشهد الأول)

الحاجب: (وأنفاسه تتلاحق) وصل سيدنا (وبعداء واضح ينظر إلى أبسلانتي) وصل مولانا السطان، والدنا.

القاضي خضر: (بحدة) اصمت، أنت موظف في محكمة الشريعة الإسلامية. إنه قد حضر إلينا كمتهم، وليس كسلطان.

(للمعماري) هل أحضرت الشهود يا سيد أبسلانتي؟!

أبسلانتي: (يتلفت في ضيق) جاء الشاهدان يا سيدي وهما عاملان، كلاهما، ومن دينكم. فكرت أن شهادتهما قد تجدا قبولاً عندكم أكثر.

القاضي خضر: (مقاطعاً حديثه) لا تزد في حديثك، إلا بعد أن أسألك؟ فلا تغاير الأدب (للحاجب): ناد على المتهم أن يدخل.

الحاجب: (بتردد) ك... ك... كيف ذلك يا سيدي؟!!

القاضي خضر: بالطريقة المعتادة، مثلما تنادي دائماً على كل من يمثل أمامنا، أن تذكر اسمه، واسم أبيه.

الحاجب: (لا يزال متردداً) سيدي القاضي، لكنه السلطان، سلطاننا وسيدنا، والدنا، كل شيء عندنا أنه أمننا وأماننا وضمان العدل فينا، فكيف بالله أفعل ما تأمرني به يا سيدي؟!

القاضي خضر: (يعتدل بعصبية ويشير بأصبعه إلى الباب)

افعل ما قلته لك على الفور، إنه هنا.. في هذه المحكمة. لم يأتِ بصفته سلطاناً، بل أتى بوصفه متهماً بارتكاب ذنب، هيا ناد عليه.

الحاجب: (يفتح الباب وهو منخلع الفؤاد.. وينادي): الأمير الأعظم ابن السلطان مراد (ينظر إلى القاضي بخوف) سل... سل... (ولكنه يخاف من القاضي خضر فلا يكمل كلمة سلطان) محمد.

السلطان: (يدخل) بعد إذنكم. (يجلس على الأرض متربعاً أمام القاضي).

القاضي خضر: (يشير إلى السلطان) المتهم يجب أن يكون واقفاً. قف!

ستقوم الآن بالدفاع الشرعي أمام خصمك.

السلطان: عفواً سيدي، أعتذر وأرجو قبول اعتذاري عن غفلتي هذه. إننا أمام باب الحق، نعم يا سيدي القاضي.

القاضي خضر: (بحدة) لا يجوز جلوس المدعى عليه بينما يقف المدعي.

لابد من العلم بهذا والعمل به (ينظر مباشرة ناحية السلطان) عرّف بنفسك.

السلطان: (محنياً رأسه) أنا الفقير إلى الله، عبدالله الضعيف إليه، محمد.

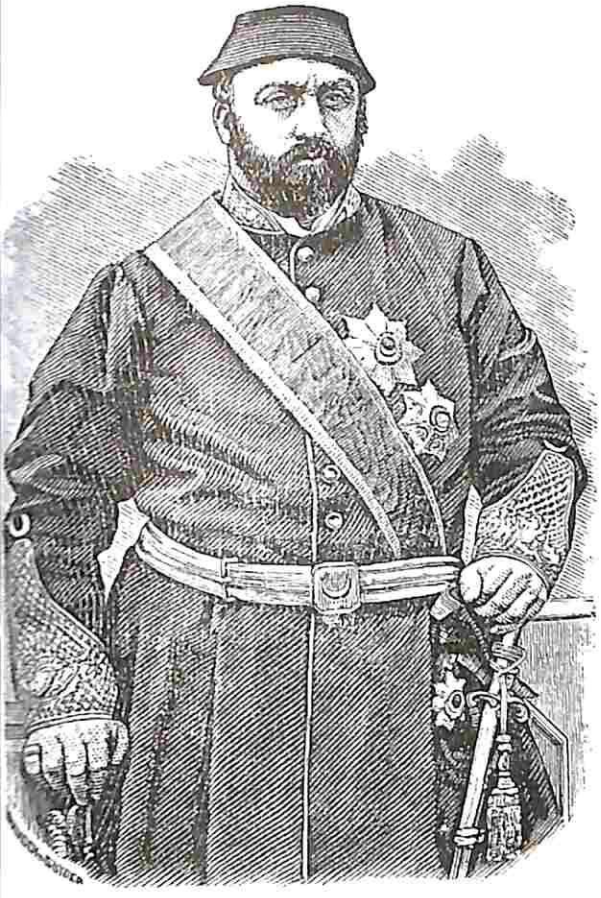

القاضي خضر: (يلتفت لكاتب الجلسة) اكتب: اسمه محمد.

(يلتفت إلى السلطان) هل تحمل لقباً؟

السلطان: العبد الضعيف إلى الله، محمد ابن السلطان مراد، ولقبي الأمير الأعظم.

القاضي خضر: (للكاتب) اكتب الضعيف إلى الله محمد (للسلطان).. اقترب لتُقسم.

السلطان: (يدنو بطاعة واحترام) أفعل.

القاضي خضر: (للسلطان): فلتحلف اليمين لتقول الصدق.

السلطان: (يتقدم، يفعل كل ما قيل له) أقسم بالله: إنني سأجيب على كل

أسئلتكم بصدق وأمانة، والله على ما أقول شهيد.

القاضي خضر: حسناً! يمكنك أن تعود إلى مكانك. قل لي الآن: لماذا أمرت بقطع يد هذا المعماري.

السلطان: لأنه قام بكسر الأعمدة الرخامية التي أحببتها حباً جماً.

القاضي خضر: (للمعماري) ما قولك؟

أبسلانتي: ما فعلته هو الصحيح، وإلا كانت القبة ستبدو أكثر من المناسب، وسيكون هناك خلل في جمال الجامع، وليس لأحد التدخل في عمل الفنان، ولو كان السلطان.

القاضي خضر: (للكاتب) هل سجلت كل هذا؟

الكاتب: نعم يا سيدي.

القاضي خضر: (للحاجب) ناد على الشاهدين!

الحاجب: (ينادي عليهما من الخارج) فليدخل شاهدا السيد أبسلانتي. (يدخل الشاهدان. القاضي خضر يجعلهما يؤديان القسم. ويقسمان ليقولا الحق).

القاضي خضر: (للشاهد الأول) قل الحق.. اذكر أمامنا الحقيقة التي تعرفها، ولا تنس أن الله تعالى هو خير الشاهدين.

الشاهد الأول: حاشا أن أنسى ذلك في أي وقت. الحقيقة أن سلطاننا قد جاء وسأل المعماري أبسلانتي قائلاً: لماذا قطعت من الأعمدة ما أراه؟ فأجابه المعماري أبسلانتي بما هو مناسب، لكن السلطان أمر بقطع ذراعه.

القاضي خضر: (للشاهد الثاني) هل هذا صحيح؟ هل شهدت هذا؟

الشاهد الثاني: (يهز رأسه بالإيجاب) نعم، رأيت هذا، وأشهد عليه، فسلطاننا أمر بقطع ذراع المعماري أبسلانتي لأنه قطع الأعمدة الرخامية.

القاضي خضر: (للمعماري) هل أنت صاحب الدعوى؟

أبسلانتي: نعم.

القاضي خضر: (للسلطان) هل اتضح الأمر بعد أن ذكر المعماري أبسلانتي والشاهدان ماذكروه؟ وهل عندك ما تقوله؟ هل لديك أقوال أخرى؟

السلطان: (يهز رأسه موافقاً)، لا يوجد لدي ما أقوله، فقد اتضح الأمر بعد قولهم هذا؟

القاضي خضر: (يلتفت بوجه مضطرب إلى أقصى درجة، موجهاً كلامه إلى الكاتب) اكتب يا بني!

ثبت لدينا الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن السلطان أمر بقطع ذراع المعماري أبسلانتي، لذلك، وبموجب أحكام الشرع الشريف فإني أحكم بالقصاص (يوجه حديثه إلى السلطان) هل لديك ما تقوله؟

السلطان: (يحني رأسه) أمام الشرع الشريف تصبح رقبتي أدق من شعرة الرأس.. دامت عدالتكم.. وليس لدي أقوال أخرى.

القاضي خضر: (يفتح يديه للجانبين بحزن) انتهت المحاكمة. فليذهب كل إلى وجهته.

(لا أحد يتحرك من مكانه)

قلنا: إن المحاكمة انتهت. ماذا تنتظرون؟

أبسلانتي: (يوجه حديثه إلى القاضي في حيرة) أتسمح لي سيدي أن أعرض أمراً؟

القاضي خضر: قل!

أبسلانتي: (وهو يكاد يبكي) لم أكن أتصور أن العدل سينجلي بهذا الشكل. أنا الآن نادم أشد الندم. وقلبي لا يستطيع أن يتحمل قطع ذراع السلطان. وأمام هذا الحكم العادل الذي أصدرته المحكمة أجد نفسي عاجزاً عن التعبير (يرتج عليه أكثر من مرة عند التحدث، ويلقي بنفسه تحت قدمي السلطان) اعف عني يا سيدي! لم أكن أريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد. (ينهض، يلتفت إلى القاضي خضر، ويبكي) النجدة يا سيدي القاضي! أليس من مخرج آخر لحكمك هذا؟ أنا.. أنا (يتلعثم).

القاضي خضر: (يضع يده على لحيته) نعم هناك مخرج.

أبسلانتي: أنقذني به يا سيدي.

القاضي خضر: يمكن: بعد موافقتك: أن يتحول الجزاء إلى غرامة مالية.

أبسلانتي: (يتلقى جواب القاضي برغبة) رجاء يا سيدي: حوله.

القاضي خضر: (للكاتب) اكتب! سجل! رفع حكم القصاص بتنازل المدعي عن حقه على أن يتعهد المدعى عليه براتب للمعماري أو بالإنفاق عليه وعلى أفراد أسرته حتى الممات. (للسلطان) هل لديك قول أو اعتراض؟

السلطان: (ممتناً) لا.

القاضي خضر: (للكاتب) أدونت يا بني؟.. استمر.. وقد كان حكمنا في هذا أن يخصص المدعى عليه قصراً فخماً يعيش فيه السيد أبسلانتي وأفراد عائلته مدى الحياة وذلك مقابل إعادة الاعتبار للسيد أبسلانتي أمام الناس، مع صرف مبلغ وقدره مئة وخمسون ألف أقجه[1] لمرة واحدة، ويحذر أن يكون هذا من خزانة الدولة، وإنما من مال المدعى عليه الشخصي (يغمس الخاتم الذي في إصبعه بصناج الشمع، ويختم به أسفل ورقة الحكم، ويقدمها للسلطان) اختم.

السلطان: (يختم ورقة الحكم ويعيدها إلى القاضي خضر) تفضل يا حضرة القاضي.

القاضي خضر: (للمعماري) وأختم أنت أيضاً.

(للشاهدين) وأنتما أيضاً.

(يوجه حديثه للحاضرين فجأة) أتركونا قليلاً!

(يخرج الجميع، ما عدا السلطان الذي ينظر بودّ إلى القاضي خضر)

القاضي خضر: (بأدب جم) ألديك حاجة عندي يا مولاي.

السلطان: (مبتسماً) أنت لم تكن تتحدث معي منذ قليل بهذا اللطف ياخضر!!.

القاضي خضر: وأنت أيضاً يا مولاي لم تكن تحدثني باسمي المجرد هكذا منذ قليل.

السلطان: السبب معلوم، منذ قليل كنت تمثل العدل.

القاضي خضر: نعم إني أمثل العدل لكني الآن مجرد قاض، ولست الآن في مقام الحكم، وأنت الملك، أما أنا ففرد من رعيتك.

السلطان: (يشير إلى سيفه) انظر يا سيد خضر!! لو ناديتني أثناء المحكمة بالسلطان، لشهدت أنك أخللت بواجبك أمام العدل. (يشهر سيفه) وكنت ساعدتها سآمر بقطع رقبتك، تقرباً إلى الله وصونا لشريعة الإسلام.

القاضي خضر: (يرفع جانب المرتبة التي كان يجلس عليها، ويخرج صولجانا من الذهب، ويرفعه في الهواء) وأنت يا مولاي لو كانت السلطة غرتك، واعترضت على حكم الشرع لسحقت رأسك بهذا الصولجان.!!

السلطان: (يهتز فرحاً) الله!! الله!!

القاضي خضر: الله.. الله!!

(يجلس السلطان الفاتح، والقاضي خضر أرضاً باتجاه القبلة ويفتحان أيديهما بالدعاء)

السلطان: اللهم اقبض إليك روحي إذا فكرت لحظة بعمل مغاير لشريعتك، حتى ألقاك يا ربي طاهراً غير مذنب.

القاضي خضر: يا رب! يا أعظم العظماء! اللهم اقبض إليك روحي إذا انخدعت وهممت بالحكم الخطأ. اللهم أمتني إليك لحظتها حتى لا أجد أدنى فرصة في حياتي لتلويث عدالة الإسلام، التي يتغنى بها الناس الآن.

الاثنان معاً: اللهم اجعلنا من الذين يحكمون بشرعك الشريف، ويجاهدون في سبيلك من أجل نصرة الحق المبين: آمين.

ينزل الستار، بينما يصدح النشيد العثماني العسكري (وهاهو ذا سلطاننا الفاتح يخرج من قصره ليتجه إلى المدينة) ■

الهوامش:

(١) أقجة: اسم العملة العثمانية القديمة ومعناه بالعربية (قطعة معدنية بيضاء) وربما كانت تطلق على الدراهم الفضية !! (التحرير).